صوتان في «يوميات امرأة لا مبالية»

بقلم الدكتور عبد المحسن طه بدر

اذا كان الحس الصادق والعميق للفنان العربي يكشف له عن طريق واحد وحتمي ليس أمام أمتنا العربية غيره للدفاع عن وجودها ، وهو طريق الكفاح المسلح ، واذا كان يرى ان رؤيته للواقع على هذه الصورة تدفعه الى دعوة أبناء أمته الى التضحية بأنفسهم دفاعا عن حياتهم ومستقبلهم ، فان هذه الرؤية نفسها تحتم عليه أن يكون قادرا هو الآخر على التضحية ، وأن يتسلح بروح المحارب في كل ما يكتبه ، وأن يكون مستعدا لكل تضحية تفرض عليه ، وأن يقاوم في ذاته كل محاولاتها لتبرير نفسها أو تطهيرها ، وأن يدرك سخف ما كان يسمى بالمجد الادبي وأن يكف عن العويل والصراخ اذا شكته ابرة ، والا تحول الى مهرج يدعو الناس الى الكفاح حتى الموت ، وهو أثناء دعوته يرتعد ذعرا خشية أن يقذفه أحدهم بحجر .

ولا شك ان الكثيرين من أدبائنا يحاولون الآن جاهدين أن يحفروا أرض الواقع بعمق وأن يجدوا للفنان العربي مكانا في معركة أمته العربية ، وأن يردوا له مكانته بعد الضربة التي أصابته في الصميم ، وكشفت له عما يتلهى به من زخارف هامشية جعلته يلهث خلف الاحداث عاجزا عن مواكبتها أو دفعها الى الامام . أليس من المثير للعجب والدهشة أن تكون الصدمة التي أصابت الاديب العربي بعد النكسة العسكرية لا تقل عن صدمة أي فرد عادي من أفراد أمته ؟

ان الامانة تفرض على الاديب العربي أن يحاول الكشف عن العوامل السلبية التي عاقت حركته في الماضي والتي تعترضها في المستقبل ، سواء أكانت هذه العوامل مفروضة عليه من الخارج أو نابعة من الداخل لعلنا بهذا التكاشف نستطيع التخلص من سلبياتنا ، أو نمهد الطريق لجيل من الادباء أشد صمودا وأصلب عودا .

وسيكون الحديث الذي أتعرض به لـ « يوميات امرأة لا مبالية » محاولة من محاولات التكاشف تتعدى حدود الاشخاص علّها ترتفع الى مستوى المسؤولية .

(١)

كان نزار قباني قبل النكسة شاعرا ملء السمع والبصر يحظى بأكبر عدد من المعجبين حظي به شاعر ، كما كان يتمتع أيضا برفض عدد لا بأس به من مثقفي أمته ، وقد أدهش نزار المعجبين به والرافضين لشعره بعد نكسة حزيران مرتين .

أما الدهشة الاولى فترجع الى الانقلاب المضاد الذي حدث في شعره سواء بالنسبة لمجال هذا الشعر أو لمستوى عمق الرؤية فيه .

وكان مجال شعر نزار قبل النكسة يدور حول المرأة ، لا مجرد امرأة ولكن المرأة الجميلة جمالا مثاليا مطلقا ، واذا عجز الواقع عن منح نزار هذه المرأة ، فعليه كشاعر أن يسقط عليها كل هذا الجمال المطلق والمثالي :

« فلا تنعتيني بموت الشعور
ولا تحسبي أن قلبي حجر
فبالوهم أخلق منك الها
وأجعل نهدك .. قطعة جوهر
وبالوهم أزرع شعرك دفلى
وقمحا .. ولوزا .. وغابات زعتر

ومن الطبيعي أن ينفي نزار عن عالمه الشعري كل امرأة تجاوزت الاربعين ، أو كانت لا تتمتع بهذا الجمال المثالي والمطلق .

وكل هموم هذه المرأة نابعة من همومها الجسدية ومن رغبتها في اقتناص الرجل ، ولعل استعراض بعض عناوين قصائد نزار يكشف حدود المجال الذي كان يدور فيه شعره ، فنحن نجد أنفسنا ندور في حلقة من مثل هذه العناوين « القرط الطويل ، رافعة النهد ، نهداك ، شمعة ونهد ، الى ساق ، حلمة ، الشفة ، الى مضطجعة ، همجية الشفتين ، ذئبة ، المستحمة ، مصلوبة النهدين ، معجبة ، ثوب النوم الوردي ، خصر ، هرة ، القميص الابيض ، الجورب المقطوع ... الخ » .

ومن الطبيعي ان هذه المرأة الجميلة بصورة مطلقة في حاجة الى رجل فحل أو « دون جوان » بصورة مطلقة أيضا يستطيع أن يذيب المرأة بنظرة واحدة :

تناول السكر من أمامي
ذوّب في الفنجان قطعتين
ذوبني ذوب قطعتين

وتدور هموم مثل هذا الرجل وقدره ومصيره حول جسد المرأة أيضا ولا شيء غير ذلك :

بأعراقي الحمر ... امرأة
تسير معي في مطاوي الردى
تفح وتنفخ في أعظمي
فتجعل من رئتي موقدا

ولا أقدر من مثل هذا الرجل على اكتشاف مفاتن أنوثة المرأة وتذوقها :

وشجعت نهديك ... فاستكبرا
على الله حتى فلم يسجدا

... ووظيفة الشقراء عنده تتحدد على الوجه التالي :

شقراء يا فرحة عشريننا
ونكهة الزق وهزج الفراش

ولا تختلف وظيفة السمراء عن الشقراء :

سمراء صبي نهدك الاسمر في دنيا فمي
نهداك نبعا لذة حمراء تشعل لي دمي
متمردان على السماء ... على قميص المنعم
صنمان عاجيان .. قد ماجا ببحر مضرم
صنمان اني أعبد الاصنام رغم تأثمي

ويتحدد مصير الشاعر وقدره بين شفتي حبيبته على هذا النحو :

الفلقة العليا ... دعاء سافر
والدفء في السفلى ... فأين أموت

وتدور العلاقة بين مطلق هذه الانثى ومطلق هذا الرجل خارج حدود المجتمع والزمان والمكان ، بلا هموم الا هذا الهم الوحيد ودون أن يختلط بهذا الهم أو ينعكس عليه أية هموم انسانية أخرى ، ولذلك فالعلاقة بين الرجل والمرأة في هذا الشعر مطلقة بلا حدود ، وثنية بصورة قاسية ، سطحية ومغلقة لانها لا تتفاعل مع أية علاقة اجتماعية أخرى .

المرأة محكوم عليها مقدما اذا بعدت عن مطلق الجمال أو اشباع الشبق الجنسي لدى الرجل ، اذا تجاوزت سن الاربعين أو كانت متوسطة الجمال ، أو أصبحت حبلى ، أو أشبع الرجل شبقه اليها ، أو نظرت في علاقتها بالرجل لشيء آخر غير مطلق رجولته .

والرجل أيضا محكوم عليه اذا لم يكن فحلا يذيب النساء بقوة شخصيته ويحركهن حتى الاعماق . وليس من الغريب أن يكون قاموس نزار في هذه الفترة مكونا من مثل هذه الالفاظ : « الدانتيل ، العراء ، الاغراء ، شهقة ، حلمة حمقاء ، شرس ، الحرير ، الغلالة ، أشرطة الحرير ، مزرعة الفل ، النفخ ، الفحيح ... الخ » .

وحين كانت الظروف تفرض على الشاعر أن يخرج عن هذا المجال كما حدث في قصيدة « جميلة » فان قاموس الشاعر كان يتغلب عليه حتى لنحس جميلة جسدا قبل أن تكون رمزا للمقاومة .

ومن حق الشاعر علينا أن نذكر ان بعض شعره الاخير قبل النكسة يكشف عن انقلاب في موقف الرجل من المرأة ، فبعد أن كان الصائد الفخور بدأنا نحس بنغمات صادقة تكاد تحطم الحصار الذي فرضه الشاعر على نفسه وكأنه أدرك أخيرا ما كان ينبغي أن يدركه من البداية ، وهو ان شعره كله وما صوره فيه ليس الا نوعا من الهروب فيقول :

لا أحد يفهم مأساة شهريار
حين يصير الجنس في حياتنا نوعا من الفرار
مخدرا نشمه في الليل والنهار
ضريبة ندفعها
بغير ما اختيار

أو يتوجه الى امرأة بالحديث فيقول :

وبعد
أيا شهرزاد النساء
أنا عامل من دمشق ... فقير
رغيفي أغمسه بالدماء
شعوري بسيط
وأجري بسيط
وأومن بالخبز والاولياء
وأحلم بالحب كالآخرين
وزوج تخيط ثقوب ردائي .

هذه هي الخطوط العريضة التي كانت تحدد مجال شعر نزار قبل النكسة وعالمه ، وقد حاول نادرا أن يتحدث بصوت الواعظ في قصائد مثل « قصة راشيل شوارنبرغ » أو « خبز وحشيش وقمر » أو « رسالة جندي في جبهة السويس » ، ولكن صوت الواعظ كان خافتا لا يكاد يبين الى جانب صوت « الدون جوان » الذي كان نزار يمثله بالنسبة لمن أعجبوا به أو لمن رفضوه !

(٢)

وكانت الصدمة التي أدهشت المعجبين والرافضين معا لشعر نزار هي انهيار عالمه القديم انهيارا كاملا واختفاء صوته الاول وخلع ثياب « الدون جوان » لتظهر ثياب الواعظ بعد النكسة ، وصار نزار من جديد ملء السمع والبصر لا نتيجة لتحليل شعره الجديد ، ولكن لمحاولة اثبات شرعية أو عدم شرعية موقف الواعظ الذي اتخذه نزار بعد النكسة ...

وكان أنصار نزار يرون ان من حق الشاعر بعد النكسة التي زلزلت قيم العالم القديم أن يتطور وأن يتغير وأن يدين العالم القديم المنهار ، وقال الخصوم ان التطور لا يأتي فجأة ولا بد له من مقدمات تشير اليه وتبشر به ، وان نزار من عمد العالم القديم الذي أدى الى النكسة ، وانه آخر من يحق له رفع صوته بالادانة الى هذا الحد . وغطى ضجيج الشرعية واللاشرعية على تبين حقيقة موقف الشاعر وطابع صوته الجديد في مرحلته الجديدة التي قدم لنا فيها « هوامش على دفتر النكسة » ، و « المثلون » و « الاستجواب » و « فتح » و « شعراء الارض المحتلة » و « القدس » .

وواقع الامر ان صوت الواعظ الذي تحدث به نزار بعد النكسة هو صورة من محاولة التطهر التي أصابتنا جميعا ، والتي تمثلت في الادانة المطلقة لانفسنا وللعالم القديم ، وفي محاولة الاعتراف بذنوبنا والتطهر منها وكأن الاعتراف بالخطأ يكفي لتبرير وقوعه . كما تمثلت في محاولة طرح المسؤولية على آخرين وتبرير الذات كلما أمكن ذلك .

ومثل هذا الموقف الذي يدين الماضي بصورة مطلقة

موقف صحي لانه تمهيد طبيعي للثورة ، ولكنه يصبح ظاهرة مرضية اذا توقفنا عندها عاجزين عن تحسس طريق المستقبل . ويكشف هذا الطراز من التفكير عن كوننا ندور في الحلقة المفرغة السابقة نفسها التي تقوم على التفكير المثالي الذي ننتقل فيه من النقيض الى النقيض والذي يشغلنا فيه أولا وقبل كل شيء محاولة تطهير الذات وتبريرها على حساب الآخرين ولو منعنا هذا من التحسس الصادق لطريق المستقبل . ولو كان أسلوب المفكرين العرب في التفكير علميا وواقعيا لما صدموا وفجعوا في حزيران بكل هذه القوة .

ولان عالم ما بعد حزيران لم يتمثل بعد تمثلا كاملا في نفسية شعرائنا وأدبائنا فقد أصبح أغلبهم في موقف القضاة والوعاظ والدعاة لا في موقف الادباء والشعراء ، وهكذا أصبح صوت نزار الثاني صوت واعظ يدين كل العالم القديم بأسلوب تقريري ومباشر . يقول في « هوامش على دفتر النكسة » :

أنعي لكم يا أصدقائي ، اللغة القديمه
والكتب القديمه
أنعي لكم
كلامنا المثقوب كالاحذية القديمه
ومفردات العهر ، والهجاء والشتيمه
أنعي لكم
أنعي لكم
نهاية الفكر الذي قاد الى الهزيمه

ويقول في « المثلون » :

كتَّابنا
ما مارسوا التفكير من قرون
لم يقتلوا
لم يصلبوا
لم يقفوا على حدود الموت والجنون
كتَّابنا
يحيون في اجازه
وخارج التاريخ يسكنون

وهكذا تحول صوت نزار الشاعر الى صوت واعظ وقاض ومبشر ، وارتفع الصوت الثاني عاليا ليختفي تماما صوت الشاعر الاول .

وحين ظهر الاعلان عن عمل نزار الاخير « يوميات امرأة لا مبالية » ، وقبل أن يقرأه القراء ، كانت الدهشة الثانية . هل عاد لنزار صوته القديم ؟ وظهرت الابتسامة الساخرة على وجوه الشامتين : « ألم نقل لكم ؟ لقد عاد نزار الى قواعده سالما ، عاد كأن شيئا لم يكن وبراءة الاطفال في عينيه ! لقد عاد الى مجاله الضيق وعالمه المحدود ! » فهل يمكن حقا أن ننظر الى « يوميات امرأة لا مبالية » بمثل هذه النظرة ونقف منها مثل هذا الموقف ؟!

(٣)

لقد نجح نزار في أجزاء من قصيدة « فتح » وأجزاء من قصيدة « القدس » ، ونجح قبل حزيران في قصيدة كفرناطه في أن يحقق التلاحم العضوي بين صوت الشاعر وصوت الواعظ ، نجح في التفتح على الواقع والتلاحم معه دون أن يقف موقف القاضي والواعظ ، ولكنه اعتمد على الايحاء وهو وسيلة الشاعر وأداته . وقد أراد في « يوميات امرأة لا مبالية » أن يحقق هذا التلاحم في المجال الذي يستطيع أن ينطلق فيه بأقصى قدراته ، أراد أن يكون في الوقت نفسه الشاعر والثائر ، لا الشاعر مرة والواعظ مرة أخرى . أراد أن يعقد صلحا بين العالم الوهمي الكرتوني المسطح الذي عاش فيه قبل حزيران وعالم ما بعد حزيران وهو طموح كبير يستحق منا أولا كل تقدير .

والمنطلق الذي انطلق منه نزار الى كتابة « يوميات امرأة لا مبالية » منطلق صحيح ومبرر ، فليست الثورة بنادق تنطلق ومدافع تهدر في فراغ ومن أجل لا شيء ، ولكن الثورة تغيير شامل وجذري لكل العلاقات التي يعيش فيها مجتمع من المجتمعات ، وهذا التغيير لا يقتصر على مجال واحد ولكنه يشمل كافة المجالات . ولعل حاجتنا الى العيش بروح المحارب تقارب في أهميتها وجود المقاتل نفسه . ونزار يعتبر « يوميات امرأة لا مبالية » محاولة لازالة العوائق من طريق الثورة . يقول في المحاضرة التي القاها في الجامعة الاميركية وهو يقدم كتابه : « والجنس هو واحد من همومنا الكبيرة ، بل هو أكبر همومنا على الاطلاق ، ولن يكون هناك تغير حقيقي اذا بقي الورم الجنسي ينهش حياتنا وجماجمنا » .

ويقول معلقا على شعر المقاومة في مجلة «الطريق» :

« الدور الوطني الذي أداه شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة مسح بقية الادوار الاجتماعية والجمالية أو على الاقل تركها في الظل . فالعالم العربي استقبل المقاومة نفسها بحماس يصل الى مرتبة العبادة . وحين يكون الانسان في حالة عبادة ينسى كثيرا من تفاصيل المعبود وجزئياته . وهذا ما جرى بالنسبة لمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ، فان ارتباطهم بالقضية الكبرى جعلهم يكتسبون مساحة القضية وأبعادها ... ما دام شعراء المقاومة في فلسطين المحتلة يطلقون الرصاص في صفوفنا فاننا نرحب برصاصهم ، أما بقية التفاصيل الجميلة والفنية فليس هنا وقتها » !!

وبصرف النظر عن رأي الشاعر في شعر المقاومة وما عمد اليه من غمز لهذا الشعر وهو ما يحتاج الى حديث طويل ، فمن حقنا أن نستنتج ان الشاعر يحاول بعث الحياة في بقية العلاقات الاجتماعية وتركيز الضوء عليها من جديد

التتمة على الصفحة ـ ٥٣ ـ

صوتان في يوميات امرأة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

والاحتفاظ للشعر في الوقت نفسه بقيمه الجمالية والفنية .

وطموح الشاعر كما قدمنا مبرر والنية طيبة ، اذا استطاع الشاعر أن يحقق نواياه . فهل قدر لنزار أن يحقق ما أراد ، وهل التحم في « يوميات امرأة لا مبالية » صوت الشاعر وصوت الداعية أم ظل التساؤل الذي طرحه نزار عن ازدواجية التفكير والاحساس لدينا قائما ما يزال بعد قراءتنا ليوميات امرأة لا مبالية ؟

(٤)

حاول نزار في مقدمته وبشتى الطرق أن يدفعنا دفعا الى التعاطف مع قضية المرأة عموما من خلال اليوميات التي يقدمها . يقول متحدثا عن الاثر الرهيب الذي تركته هذه اليوميات في نفسه وهو يقرأها : « ضممت على الاوراق يدي . كانت باردة ، مبتلة ، لاهثة كعصفور لا وطن له طار ألف قرن تحت الثلج والمطر ... وفي غرفتي فتحت غطاء الكنز المسحور وأوقدت نارا ... وبدأت أقرأ . ركضت على الحروف المشتعلة كأنني أركض على جسر من أعواد الكبريت .. كلما لمست عودا تفجر .. وفجر غيره ... وحين انتهى الليل شممت في حجرتي وفي ثيابي رائحة غريبة .. رائحة امرأة تحترق ... » .

والقارىء يحاول جاهدا أن يستجيب الى دعوة الشاعر في المقدمة وفي المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الاميركية ، ولكنه يجد نفسه عاجزا عن مثل هذا التعاطف ، لانه يلتقي في « يوميات امرأة لا مبالية » بصوتين متنافرين لا يلتحمان هما صوت الشاعر القديم ، وصوت الداعية ، عالم الدون جوان وعالم الثائر . بل ان صوت القاضي الداعية يبدو أقوى وأرهب بكثير من صوت نزار القديم . ويخرج القارىء بتأثير الصوتين المتنافرين اللذين لا يلتحمان بنوع من الحيرة والارتباك ، وتتكشف هذه الحيرة عن مجموعة من الظواهر يمكن الاشارة الى بعضها كالآتي :

أولا ـ ان « يوميات امرأة لا مبالية » لا تبدو في شكل يوميات ، كما ان المرأة التي تتحدث ليست امرأة لا مبالية ، وربما كان العكس هو الصحيح .

أراد نزار أن يثبت ان الشرق يستبد بالمرأة الى أقصى حد . وكان طبيعيا لذلك أن تكون بطلته قصيدة الدار لا تبرحها ، ولان صاحبة اليوميات قد حرمت حرية التجربة والممارسة والفعل فهي لا تقدم أحداثا وقعت في حياتها . ولكنها تقدم مجموعة من الافكار التي تجعل الواقع الذي يحيط بها موضوعا لها . ومن هنا فقدت اليوميات عفوية التجربة وتطورها وتلقائيتها وخصوبتها ، وتحولت الى مجموعة من الاحكام الجاهزة الخارجة عن حدود التطور الزمني والتي يمكن أن تكتب في جلسة واحدة . والحادثة الوحيدة التي تقدمها لنا هي « ظهور دليل أنوثتها الاول » كما يسميه نزار ، وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بأنه يتحدث عن فتاة مراهقة لا امرأة ناضجة ، وحاول نزار مرة أن يوحي لنا بأننا نقرأ يوميات فجاء على لسان « الفتاة » :

خلوت اليوم ساعات
الى جسدي
أفكر في قضاياه
أليس له هو الثاني قضاياه
وجنته وحماه

ولكننا كما نرى من المقطوعة نواجه فكرا وقضايا قبل أن نكون في مواجهة تجارب حية موحية تدفعنا الى التعاطف مع « الفتاة » والاحساس بمشاعرها . وقد نتج عن حرمان « الفتاة » حق الفعل والتجربة أن تحول الديوان من مجموعة من التجارب الحية الى مجموعة من القصائد الفنائية التي تتحدث كل منها عن قضية فكرية مستقلة بحيث يمكن أن تتحول الارقام التي وضعها نزار لقصائد الديوان الى عناوين على الشكل التالي : « الحجر على حرية المرأة » « فهم الرجل الشرقي للمرأة » « عبودية المرأة » « استبداد الاب » تفضيل الاخ » « مصادرة الحب » « عقدة البكارة » ... الخ .

وقد أدى هذا الموقف الى مجموعة من السمات الفنية الاخرى في الديوان ومنها ان الديوان أصبح مجموعة من القصائد الفنائية التي يبرز منها صوتان واضحان :

أما الصوت الاول والاعلى فهو صوت الداعية والخطيب الذي ينصب من نفسه قاضيا وهو صوت المؤلف بعد حزيران ، ويسوده أسلوب التقرير ، وعلامته في الديوان أن يتحدث المؤلف بضمير المتكلم الجمع أو بضمير المخاطب ، بل انه في بعض المقطوعات ينسى المرأة اللامبالية تماما ويتحدث على لسان الرجال بعد أن أزاح البطلة تماما من المجال (راجع على سبيل المثال المقطوعة رقم ٣٣) .

أما الصوت الثاني فهو صوت الفتاة وعلامته في الديوان الحديث بضمير المتكلم المفرد ، والصوت هنا هو صوت عالم نزار قبل حزيران وهو صوت المرأة التي لا تعنى الا بهموم الجسد وعالمها هو عالم النهود والفساتين وغيره من قاموس نزار القديم .

ويبدو التنافر واضحا بين صوت المؤلف الذي يدين العالم القديم بكل مؤسساته بأحكام نهائية وحاسمة وصوت الفتاة المعزولة المراهقة المنغلقة على نفسها المشغولة بهموم جسدها . وبهذا تفقد يوميات نزار طابعها كيوميات وتتحول الى مجموعة من القصائد الفنائية التي يسيطر عليها الاسلوب التقريري .

وقد حاول نزار أن يقنعنا بأن المرأة التي كتبت اليوميات معجزة من المعجزات . يقول في مقدمة الديوان

« لا جديد في تاريخ ارهابنا ... ولكن الجديد أن يثور المذبوح على ذابحه ، والقبر على حافره .

« الجديد أن يرفض الميت موته ، وأن يعض الجرح على نصل الخنجر ، وهذا ما فعلته صاحبة هذه اليوميات » .

ويؤكد وقوع المعجزة في المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الاميركية فيقول : « اكتشاف امرأة من هذا الطراز كان معجزة ووجه الاعجاز فيها انها تتكلم وتكتب أيضا ، ليس قليلا أبدا أن تمارس امرأة في شرقنا النطق والكتابة ، فالمسؤولون في سجن النساء منعوا لسانها عن الحركة . قطعوه وأكلوه. أنسوها غريزة النطق ، وصادروا منها أدوات الكتابة » .

ولست أدري لماذا أحس ان معجزة نزار « معجزة من ورق » . فأي اعجاز يريدنا نزار أن نحس به بعد أن أفقد بطلته حرية الممارسة والتجربة ، بحيث اقتصرت بطولتها على كتابة يوميات يمكننا أن نجد ما هو أشد تأثيرا منها في حقائب بعض فتياتنا المراهقات ، بل انها بلغت من الشجاعة وعدم المبالاة انها تكتبها وهي ترتجف فرقا !! وبعد أن كتبتها أوصت الشاعر الا ينشرها وأخذت عليه المواثيق والعهود !!؟ أي شجاعة هذه وأي لا مبالاة ! لقد خطر لي أن أسمي « يوميات امرأة لا مبالية » ب « أحلام فتاة مراهقة ومواعظ شاعر حكيم » .

ثانيا ـ ما زال نزار يتعامل مع مطلق الانثى ، أي الانثى في كل زمان ومكان وبيئة . يقول في مقدمة اليوميات : « هذه الاوراق كتبتها امرأة لا اسم لها .. في مدينة لا اسم لها .. وليس يهم أبدا أن يكون لصاحبة هذه اليوميات اسم ، وأن يكون لها مدينة ، فهي الاسماء جميعا. وهي الانثى الخالدة الخارجة على اطار الزمان والمكان والتي يصفها العقاد في روايته « سارة » بقوله : « حزمة من أعصاب تسمى امرأة وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة ، استغرقتها الانوثة فليس فيها الا أنوثة ولعلها أنثى ونصف أنثى ، لانها أكثر من امرأة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه ، لا لانها أضعف من امرأة واحدة . ولقد يخيل الى الانسان في أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق ، وأن يسوي تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصرا من الابدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل، وآدمي يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى وأبوة أحرى أن تنتقل الى أمومة ، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب ، أما هذه المخلوقة فلو انتقل منها عصب الى تكوين ليث غضنفر لبقي هناك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشاج ولو بقي ألف سنة ولو انها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة توشك أن تغطي على جميع تلك الاجسام » .

هذه الانثى التي لا تتمتع الا بحقيقة جوهرية واحدة هي حقيقة الانوثة ، والتي لا تهتم بشيء غير حقيقتها الجوهرية اذا نزعنا عنها القشور والطلاء الخارجي ، هذه الانثى والانثى فقط ، الخارجة عن اطار الزمان والمكان والتي تحافظ على جوهرها ضد وفي مواجهة أي تطور هي أنثى نزار القديمة ، وهي الانثى التي يتعامل معها في « يوميات امرأة لا مبالية » والتي يقول الشاعر على لسانها في اليوميات :

على كراستي الزرقاء
تسقط كل أقنعتي الحضاريه
ولا يبقى سوى نهدي
تكوم فوق أغطيتي
كشمس استوائيه
ولا يبقى سوى جسدي
يعبر عن مشاعره
بلهجته البدائيه
ولا يبقى ... ولا يبقى
سوى الانثى الحقيقيه

ولكن هذه الانثى البدائية تضع نزار الذي يريد أن يكون ثائرا من خلالها في مأزق ، وقد نشأ هذا المأزق عن تطور المجتمعات العربية نفسها ، وعن كون صور استعباد الرجل للمرأة اتخذت صورا أكثر خفاء ، وتحولت الى سراديب أكثر التواء ، ثم ان هذه الانثى الابدية تصلح لكل زمان وتعيش في كل بيئة ، وهي لذلك لا تصلح رمزا لمجتمعنا العربي وخاصة في الظروف الراهنة .

وقد حاول نزار الخروج من هذا المأزق بأسلوبين :

أما الاول منهما فهو زعمه بأن هذه المذكرات كتبت منذ عشر سنوات وظل محتفظا بها في درج مكتبه ، ثم نشرها بعد انقضاء كل هذا الزمن !! وكان من حقنا أن نطالبه بأن يدرك التطور الذي طرأ على المجتمعات العربية طيلة هذه الفترة اذا كان يؤمن بالتطور ، او بامكان تغيير وضعية أنثاه الخالدة .

أما الاسلوب الثاني فيتمثل في محاولة البحث عن مكان لانثاه الخالدة ، وقد أحس بذكاء ان هذه الانثى الخالدة أصبحت أصغر من حجم بعض المثقفات في بلادنا، فحاول حل المشكل بنقل أنثاه الخالدة الى الاقاليم . يقول في محاضرته التي ألقاها في الجامعة الاميركية : « وقد لا ينطبق وضع اللامبالية مئة بالمئة على وضع المرأة البيروتية التي تسكن شارع الحمراء أو الدمشقية التي تقطن حي أبي رمانة أو القاهرية التي تسكن الزمالك ، فقضية المرأة الشرقية لا تنحصر بثلاث مدن وثلاثة شوارع .

« لقد اخترت نموذجي من قرانا واحيائنا الشعبية وبوادينا حيث لا تزال المرأة تقايض بالنوق والماعز وتوزن كأكياس الطحين ، وتقوم خلال حياتها بزيارتين لا ثالث لهما : واحدة لبيت زوجها والثانية للقبر » .

وهكذا حاول نزار اجبار أنثاه الابدية الوثنية التي لا تخضع للزمان والمكان والتي لا تقبل غير حقيقة واحدة هي حقيقة أنوثتها ، حاول اجبارها على الاستقرار في بوادينا وأقاليمنا ، وبتعبير آخر حاول نزار اجبار صوته

القديم مرة ثانية على الخضوع لصوت الداعية والواعظ مما تركنا في بحران من الحيرة التي تتمثل بعض مظاهرها فيما يلي :

التناقض بين ما زعمه من اقليمية اللامبالية وبين عالمها الحافل بالفساتين الحريرية والكراسات الزرقاء والعطور الفرنسية والتي تعيش في قصر تستلقي فيه على النمارق المصفوفة وتحفه الحدائق الفناء ، والتي لا هم يشغلها من هموم العيش سوى التعبير المحموم لجسدها وشوقها الى الفارس الذي يستطيع اكتشاف كنوزه المدخرة ، ولست أعتقد - رغم اعتقادي ان فوق كل ذي علم عليم - ان هذه الانثى هي أنثى البوادي والاقاليم التي ما تزال تقايض بالنوق والماعز وتوزن كأكياس الطحين ، وتقوم خلال حياتها بزيارتين لا ثالث لهما ، واحدة لبيت زوجها والثانية للقبر !!!

واذا كانت أنثى نزار الابدية المتمردة على القشور الحضارية تتمرد على الاطار الذي حاول نزار وضعها فيه فانها تحيرنا أيضا بما تريد ، واذا أزحنا جانبا ذلك الخلط الذي يحدث في عالمنا العربي بين ما نسميه الحب ، وما نسميه الجنس ، فان أنثى نزار تطلب حرية جنسية مطلقة ، حرية بلا مسؤولية وبلا قيود ، حرية كحرية الطير والحيوان سواء بسواء . انها تربي جسدها وتهدهده وتتحسس كنوزه وتزينه وتعطره وتريد أن تمنح هذه العطايا والكنوز التي لا كنوز لديها غيرها لمن تشاء وأين تشاء دون سدود أو قيود أو حواجز .

لمن صدري أنا يكبر
لمن تفاحه أزهر
لمن صحنان صينيان ... من صدف ومن جوهر
لمن قدحان من ذهب -
وليس هناك من يسكر
لمن شفة منادية
تجمد فوقها السكر
. . . .
لمن تتهدل الاثواب ... أحمرها وأزرقها
وواسعها ... وضيقها
وعاريها ومغلقها
لمن قصبي
لمن ذهبي
لمن عطر فرنسي
يقيم الارض من حولي ويقعدها

ويمكن تلخيص كل مشكلة هذه الانثى الخالدة بما جاء على لسانها في الديوان :

لماذا لا يحب الناس ... في لين وفي يسر
كما الاسماك في البحر
كما الاقمار في أفلاكها تجري

وواقع الحال ان جميع البشر ذكورا وأناثا يحلمون بهذه الحرية المطلقة ولكن في الجنة الموعودة أو في المدينة الفاضلة ، وكل تاريخ الانسان صراع بين هذه الحرية المطلقة وبين المسؤولية ، واذا كنا نحس مع نزار بما يستهلكه الكبت الجنسي من طاقات الامة العربية جسديا ونفسيا ، فلا أعتقد ان حل المشكلة يكون في هذه الحرية اللامسؤولة ، هذه الحرية المطلقة !! واذا كنا لا نقتنع بالحل الذي طرحه نزار للمشكلة فلا أعتقد اننا قادرون على التعاطف مع مشاكل أنثاه ، وبالتالي للثورة معها من أجل تحقيقها .

وأخيرا فأنثى نزار الخالدة هي نفس أنثاه الجميلة المترفة التي تعيش استبداد الرجل وغطرسته دون أن يتأثر جمالها الجسدي ، قد يتأثر جمال أختها أو صديقاتها، أما هي فلا ، كما ان هذا الاستبداد لا يؤثر على نفسيتها ، ولا يستطيع أن يحيط الجنس لديها بأي شعور بالذنب أو القرف لانها الجميلة دائما والمعطاء دائما .

وقد أراد نزار أن يخضع أنثى عالمه القديم هذه لصوته الجديد وهو صوت الثائر الداعية ، ولكنها كانت على ضوء الصورة التي قدمها بها أقصر قامة وأضعف امكانية من أن تستجيب بصورة طبيعية لما يراد لها ، وكان لا بد من اجبارها على ذلك اجبارا وأن يوضع على لسانها من المواعظ ما ليس في طاقتها أن تعظ به ، ولذلك بدا صوت الشاعر عاليا ومفروضا وتقريريا .

ان أنثى نزار الوثنية التي تعترف بأن حقيقتها الجوهرية بعد طرح القشور الحضارية هي الانوثة ، والتي تنحصر كل مشاغلها ضمن دائرة الجسد وهمومه ، ليست الصوت المؤهل لادانة كل مظاهر حضارتنا والحكم على ثقافتنا وفننا لان كل هذه الامور لا تقع ضمن دائرة اهتمامها الحقيقي ، وكان لا بد أن ترد هذه الاحكام مفروضة بصوت الشاعر نفسه وفي شكل أحكام تقريرية مطلقة ، وحين يلجأ الشاعر الى الاحكام التقريرية فانه لا يستطيع الا أن يقع في التناقض والتعميم .

وما دمنا نعيش في دائرة المطلق ، فلا بد أن تكون الادانة مطلقة وكاملة وتشمل جميع مظاهر حياتنا (الابوة ، والدين ، والثقافة) ولا بد أن تكون كل هذه المظاهر سلبية تماما وسوداء تماما ، ولا بد أن يكون الرجل وحشا وجزارا ومستبدا الى أقصى حدود الاستبداد . يقول عنه نزار في محاضرته التي القاها في الجامعة الاميركية : « نحن الرجال خلاصة الانانية وشهوة التملك والاقطاع . نحن النفاق الذي يمشي على قدمين والوصولية التي تمشي على أربع » . وتقول الفتاة عن أبيها في اليوميات :

أبي صنف من البشر
مزيج من غباء الترك
من عصبية التتر
أبي اثر من الآثار
تابوت من الحجر
تهرأ كل ما فيه
كباب كنيسة نخر

كهارون الرشيد أبي
جواريه
مواليه
تمطيه على تخت من الطرر
ونحن هنا
سباياه ، ضحاياه
مماسح قصره القذر

وقد أساءت هذه الاحكام التقريرية والمطلقة الى قضية الديوان وفنيته معا ، أساءت الى قضية الديوان لانها صورت الرجل الشرقي في صورة رجل العصور الوسطى وأدانته بصورة مطلقة في عصر يؤمن بالنسبية ، وأظهرت سلبه لحرية المرأة في أكثر صورها فظاظة وسطحية ، في الوقت الذي أصبح فيه سلب الرجل لحرية المرأة يعتمد على وسائل أخرى أكثر رياء ومداهنة . وأساء الاسلوب التقريري الى الديوان لانه سلبه عنصر الايحاء وهو أهم ما يعتمد عليه الفنان .

ثم ان حصر قضية المرأة وحريتها في قضية الجنس وحدها والنظر الى الموضوع من زاوية المرأة وحدها عزل القضية عزلا مخلا عن مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية المسؤولة عن تعقيد المشكلة عند الرجل والمرأة معا ، فللرجل همومه الجنسية التي لا تقل عن هموم « اللامبالية » وان اختلف المستوى ظاهريا ، وهناك عوامل مسؤولة عن احاطة الجنس بمشاعر الذنب والتعقيد والالتواء كان الايماء اليها جديرا بأن يضع القضية في وضع أكثر استقرارا وأن يكسبها جوا أكثر خصوبة .

(٥)

ومن حديثنا السابق يتكشف اننا لا نعد « يوميات امرأة لا مبالية » يوميات لانها لا تتكشف عن تجارب فعلية ولا تقدم حدثا يتطور وينمو ويربط بين أجزائها ، ولكننا أقرب الى اعتبارها مجموعة من القصائد الفنائية التي تتكشف عن أسلوبين من أساليب التعبير :

أما الاسلوب الاول فيحمل صوت نزار القديم والذي يدور في مجال محدد وله قاموس خاص من الالفاظ سبق أن أشرنا اليه ، وفيه يستطيع نزار أن يختار اللفظة الموشاة الصالحة لاداء الفرض الذي اختيرت من أجله ، وهو أسلوب يعتمد الايحاء وسيلة ويعمد اليه نزار في وصف جسد الانثى ومفاتنه وقد سبق في حديثنا الاشارة الى بعض نماذجه .

أما الاسلوب الثاني فيمثل الصوت الآخر لنزار الخطيب والداعية والذي يعتمد فيه التقرير واطلاق الاحكام العامة والذي نحسه مجرد استمرار لاسلوب الاستجواب والمثلون وهوامش على دفتر النكسة ومن أمثلته المقطوعة (٣٢) التي يقول فيها :

ثقافتنا
فقاقيع من الصابون والوحل
فما زالت بداخلنا
رواسب من (أبي جهل)
وما زلنا
نعيش بمنطق المفتاح والقفل
نلف نساءنا بالقطن ... ندفنهن في الرمل
ونملكهن كالسجاد
كالابقار في الحقل
ونهزأ من قوارير
بلا دين ولا عقل
ونرجع آخر الليل
نمارس حقنا الزوجي كالثيران والخيل
نمارسه خلال دقائق خمس
بلا شوق .. ولا ذوق
ولا ميل
نمارسه كآلات
تؤدي الفعل للفعل

وبعد ، لقد حاول الشاعر في « يوميات امرأة لا مبالية » محاولة جادة أن يحقق التلاحم بين الشاعر والثائر ، وأن يحقق من هذا الالتحام نغما فنيا متناسقا ، ولكن المحاولة لم تحقق كل ما أريد لها من نجاح ، وظل الشاعر والثائر متباعدين لا يلتصقان . وفي انتظار أن يتم التلاحم بين الشاعر والثائر نقدم لصاحب اليوميات خالص التقدير على محاولته ، ونأمل أن لا ننتظر طويلا العمل الذي يتحقق فيه التلاحم بين الشاعر والثائر كما يطمح اليه الشاعر وكما نرجو له أن يكون .

عبد المحسن بدر

عن الرجال والبنادق

مجموعة قصص من

ادب المقاومة بقلم

غسان كنفاني

صدر حديثا ٢٠٠ ق.ل